مستقبل الانسان ومصير العمران

ابن عظماء الارض الذين سادوا وشادوا فيها ابن قادة العقول كارسطو ونيوتن وده كارت ابن قادة الجيوش كالاسكندر وهانيبال ونبوليون مضوا وانقرض نسلهم او انحطّ واختلط بعامّة الناس . وظاهر الامر ان الجميع سائرون في خطة واحدة فيتقدم خاصتهم ويشتهرون مدة ثم يزولون ويتقدم الى مناصبهم اناس من العامة فيصيرون خاصة ثم تدول دولتهم وينقرضون وهلمّ جرًّا . فما هو مستقبل الانسان يا ترى وما هو مصير العمران انبقى حيث ابتدأنا ويبقى ارتقاء الانسان محدودًا بموت المرتقين وانقطاع نسلهم — مسألة من اهم مسائل العمران وعليها مدار البحث في هذه المقالة

قال العلّامة الشهير الفرد ولس رصيف دارون في مذهب النشوء والارتقاء انهُ ذاكر دارون في اخريات ايامهِ عن مصير الانسان في هذه الحياة الدنيا بناء على ان الّذين يرتقون ينقرضون ويبقى الّذين دونهم بمراحل فوجدهُ مبلبل الافكار من هذا القبيل ولما رأى ارآء اشهر الكتاب قد تباينت في هذا الموضوع وضع فيهِ رسالة مسهبة فاقتطفنا منها بعض ما يلي

مُن المسلّم بهِ ان التربية والتدابير الصحيّة والمحسنات الاجتماعيّة تزيد في ترقية نوع الانسان بناء على ان ما ينالهُ الشخص الواحد من نتائج هذه المرقيات يورثهُ لنسلهِ . لكنّ اشهر الباحثين حديثًا في امر الوراثة كالاستاذ غلتن والاستاذ وسمن قد ارتاب في صحّة هذا الامر واستدلّ على ان الصفات المكتسبة بعد الولادة لا تنتقل بالارث . والظاهر ان المستر ولس تابعهم في ذلك ولكنّ مذهبهم هذا لم يزل ضعيفًا والاكثرون على خلافهِ ومهما يكن من امرهِ فلا خلاف في صحة امرٍ آخر وهو ان الانتخاب الطبيعي والجنسي والصناعي من اقوى معدّات الارتقاء وفعلها اثبت من فعل التربية والتدابير الصحيّة

ولايضاح ذلك هب ان رجلين يريد كلٌّ منهما ان يولّد من خيول اميركا البريّة فرسًا ضخم الجثة قوي العضل لجر المركبات الثقيلة وفرسًا آخر ضامر الجسم مجدول العضل سريع العدو لاجل السباق وان كلاًّ منهما اقتنى مئة من هذه الخيول لهذه الغاية وكانت المئة الواحدة مماثلة للمئة الاخرى قدر ما يمكن الاّ انهما جربا في تربيتها وتأصيلها على اسلوبين مختلفين فان احدهما قسم خيولهُ المئة الى قسمين فوضع الاضخم جثة والاقوى عضلاً وحدها والاضمر والاسرع وحدها وجعل يزاوج افراد كل قسم وحدها ويختار اقربها الى

الصفات المطلوبة ويحفظ نسلهُ فقط فلا يمضي عليهِ ثلاثون او اربعون سنة حتَّى يُوجِد من هذه الخيول صنفًا صالحًا لجر المركبات وصنفًا آخر صالحًا للسباق وذلك بدون ان يغير طعامها او طرق تربيتها

واما الآخر فحاول ايجاد الصنفين المشار اليهما بالتربية والتمرين والطعام فقط اي انهُ قسم الخيول المذكورة الى قسمين متماثلين بقدر الامكان وجعل يمرّن احدهما على جرّ الاثقال والآخر على الجري ويطعم كلاًّ منهما الطعام الذي يظن انهُ يأول الى تقوية الصفة المطلوبة فيهِ ولم يختر الاقوى والاعدى لحفظ نسلها بل حفظ نسل الفريقين على السواء فلا يحصل على الغاية المطلوبة ولو بعد مئات من الاعوام

ومعلوم انهُ لا يمكن الجزم في هذهِ المسئلة الاخيرة لانهُ لم يتفق لاحد انهُ امتحن امثلتها. ولان في الطبيعة كل طرق الانتخاب تعمل معًا. الاَّ انهُ قد ثبت الآن ان الَّذين يشتهرون بشيء ويمارسونهُ جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن لا يفوقون غيرهم فيهِ فاهالي سويسرا مشهورون بتسديد الرمي ايًا عن جدٍّ ولكن قد يفوقهم ابن مَن لم يمسك بندقيَّة في يدهِ. فلو كانت مزاولة اهالي سويسرا للرمي بالبنادق تولد فيهم ملكة موروثة لوجب ان يكون اولادهم ارمى اهل الارض وقس على ذلك اولاد الصيادين والرياضيين والاطباء وما اشبه والواقع ان الَّذين اشتهروا بهذه الامور وقتًا بعد آخر هم من نسل الَّذين لم يشتهروا بها قط وهذا مما يضعف وجه الوراثة اذا لم تقرن بالانتخاب

ولما تقررت هذهِ الامور وثبت ان اولاد العظماء يحطون عن عظمتهم واولاد المرتقين لا يرتقون مثلهم نظر العلماء والفضلاء في علاج يدرأ بهِ الداء فاشار المستر غلتون وهو اشهر من بحث في هذا الموضوع ان تنتبه الحكومة الى كل الَّذين يفوقون غيرهم في صحة اجسامهم وذكاء عقولهم وحسن آدابهم وتساعدهم بالمال حتَّى يتزوجوا بالفتيات العقيلات الصحيحات الاجسام الذكيات العقول الرائعات الآداب وتجري على هذا النمط دائمًا فيتغلب فيها العنصر القوي جسدًا وعقلاً وادبًا ويزيد ارتقاؤها عامًا بعد عام

وهذا الراي سديد في ذاتهِ ولكن العمل بهِ مستصعب وغاية ما يتناولهُ خاصة الناس دون عامتهم والعامَّة هم الجمهور الاكبر فتبقى فائدتهُ محصورة

وذهب حيرام سنطلي في مقالة كتبها في العمران والزواج الى ما ذهب اليهِ ابن خلدون وهو ان الارتقاء يزيد الغنى والغنى يزيد الترف والترف يفسد الاخلاق والآداب والنسل. وان في نوع الانسان كثيرين من الَّذين لو ولدوا في نوع غيرهِ من انواع الحيوان لماتوا قبل

ان يخلقوا نسلاً فالانتخاب الجنسي والطبيعي لا فعل لهما في ترقية الانسان فلا بدَّ من الالتجاء الى الانتخاب الصناعي كما في الحيوانات الاهليَّة اي ان يمنع زواج السكير والمريض والفاسد الآداب والاخلاق ولا يباح الزواج الاَّ للاصحاء العقول والابدان والآداب . ولا يخفى ان هذا المذهب مما يستحيل العمل به لانهُ يتعرَّض لحريَّة الافراد ولا يمكن الامتثال له

وذهب غرانت الن وهو من نخبة كتَّاب العصر الى انهُ يجب ان تصرف الهمة الى تعليم البنات على اسلوب يجعلهنَّ يرغبن في الزواج وإخلاف النسل ويخترن ازواجهنَّ من خيرة الناس خلقًا وخلقًا . ولكنهُ اشار في عرض ذلك بجعل الزواج نوعًا من المتعة وهو مذهب قبيح يأول الى تقوية الشهوات وهي افسد مفسدات العمران

وذهب الكاتب الى ان شرور العمران قد تفاقمت وتعاظمت فالفقراء يضطرون ان يكدوا ويكدحوا لتحصيل المعاش وبناتهم يتزوجنَ ليجدنَ من يعولهنَّ . والاغنياء قد افرطوا في الترف والملاذ حتَّى لقد تنفق الواحدة من نسائهم الوفًا من الدنانير على حلة واحدة . وذكر امورًا اخرى من شرور الحضارة مما لا نتعرض لذكرهِ لندرة حدوثهِ في المشرق واستنتج من ذلك ان كل إصلاح خارجي نُقدِم عليهِ الحكومة يكون كتبييض ظاهر القبر وباطنهُ مملوء عظامًا وجيفًا منتنة . وعدَّ ان العلاج الوحيد لداء العمران ان يزيد الانتباه الى اصلاح احوال الافراد فاذا صلحت حال الافراد صلُحت حال الجماعات وترقى الناس رويدًا رويدًا وذلك يكون باتقان التعليم والتهذيب وتعميمها وتربية الصغار على تجنب الكسل والترف واصلاح شأن الفقراء بتقليل اتعابهم وتخفيف الضرائب عن عواتقهم . وتسليم قيادة الناس وتربيتهم الى افضلهم واحكمهم وذلك من سن الصغر فان الانتخاب يجري فيهم من نفسهِ فيزول من بينهم الضعفاء والفاسدو الآداب ويبقى الاقوياء والمستعدون للارتقاء من غير ان تعتدي الحكومة على حريَّة الافراد

ثم تابع المستر بلي الكاتب الاميركي فقال بوجوب تعميم التعليم الابتدائي فيتساوى جميع الاولاد ذكورًا واناثًا في طلب مبادىء العلم في مدارس الحكومة او الامَّة ويربون فيها احسن تربية عقلاً وجسمًا . ويباح لكل احد ان يتقن العلوم والاعمال التي هو اميل اليها بالفطرة ويساعَد على ذلك حتَّى يقوى فيهِ هذا الميل وحينما يبلغ الطلبة السنة الحادية والعشرين من عمرهم او حواليها ينتظمون في سلك الجند العملي مدة ثلاث سنوات ويمرنون على جميع الاعمال بنوع عام وعلى العمل الذي يختارونهُ للحياة بنوع خاص الى

ان يتقنوه جيدًا ويعمل الجميع معًا كأنهم ابناء عائلة واحدة والهيئة المدبرة تقسم عليهم الحاجيات والكماليات . وكأننا بالكاتب قد سئم آراء غالتن وستنلي وغرانت الن لانها تستدعي مداخلة الحكومة وتابع رأيًا كل نقطة منه تستدعي مداخلة الحكومة وتحكمها وذهب عنه انه اذا تيسر ايجاد حكومة افرادها كلهم متصفون بالاوصاف التي يطلبها مذهب بلي صارت الارض سماء والناس ملائكة وزالت من بينهم كل الشرور والمفاسد ورسخت فيهم الفضائل والآداب لان حكومة الشعب صورة منعكسة منه رجالها من رجاله واطوارها من اطواره

والارجح ان سبيل البشر الحالي آيل الى ارتقاء نوعهم رغمًا عما يُرى فيه من الشرور والمفاسد . فالعلماء لا يكفون عن البحث في نواميس الكون لكي يحذر الناس تعديها وينتفعوا بها . والفضلاء يدأبون على رفع المظالم وتخفيف المتاعب . خذ مثلاً لذلك كوخ وهورد فالاول اكتشف باشلس السل واكتشف علاجًا له فنجّى خمس البشر من حياة مفعمة بالاكدار وميتة يضرب بها المثل في الآلام . وهورد طاف السجون وحث الملوك على اصلاح شأن المسجونين فدعا صنيعه الى الاهتمام بامر المجرمين وحسبانهم من المرضى عقلاً الذين يجب علاجهم لا تعذيبهم . ولو اردنا ان نعدد الشواهد على المنافع التي جناها البشر من رجال العلم والفضل لملأنا مجلدات ضخمة . ويظهر في بادىء الرأي ان الشرور كرؤوس الهيدرا في خرافات اليونان كلما قُطع منها رأس نبت مكانه رؤوس . وحقيقة الامر ان شمس التقدم تُظهر الشرور وليل التأخر يخفيها فقد ادّعى بعضهم ان الجرائم كثرت في الولايات المتحدة بكثرة المدارس وانتشار التعليم ثم عُلم بالبحث ان الجرائم كانت اكثر كثيرًا قبل ذلك ولكن الحكومة لم تكن تنتبه اليها كلها . وهكذا يقال في اكثر الشرور التي يظهر انها زادت بزيادة التقدم والارتقاء

والنظام الحالي يأول الى زيادة الاهتمام بتعليم النساء وهنّ متى تعلمن صار لهنّ كلمة في اختيار ازواجهنّ فينتخبن الاديب على السفيه والقوي على الضعيف والعالم على الجاهل وهذا من اقوى وسائط الانتخاب

ثم ان المولودين من الذكور يزيدون الآن على المولودين من الاناث ولكنه يموت من صغار الذكور اكثر مما يموت من صغار الاناث فلا يصل الفريقان الى سن الزواج حتى يكون الاناث قد صرن اكثر من الذكور عددًا . والشائع في اكثر البلدان ان الرجل يتزوج بامرأة واحدة فيبقى كثيرات من البنات بلا زواج وهذا مما يقضي بالانتخاب للزوج لا

للزوجة اي انهُ هو الذي ينتخب زوجتهُ . ولكثرة النساء يجد الضعاف من الرجال زوجات راضيات بهم . ولكنَّ تقدُّم العلوم الطبيَّة والتدابير الصحيَّة سيقلل موتى الاطفال فيصل الذكور والاناث الى سن الزواج والذكور اكثر من الاناث عددًا وحينئذٍ يصير الانتخاب للزوجة فلا يجد الضعاف والفاسدون زوجات لهم فينقطع نسلهم ويبقى نسل الاقوياء والفضلاء

ولا بدَّ من ان تُعتبر مسألة الزواج و إخلاف النسل من المسائل المهمة في تربية الاحداث فتُوجَّه افكارهم اليها في السن المناسب وتُشرَح لهم منافعها ومضارها وتبين لهم فضائل العائلة وطرق الاعتناء بالاطفال فيميل كلٌّ من الزوجين الى التفتيش عن الصفات الفاضلة في زوجهِ . وهذا يدعو الى جعل المعلمين والمعلمات ولا سيما الذين يعلمون الشبان والشابات من المتزوجين ومن خيرة الازواج

وقد شرع الناس في اتباع هذه الخطط في اكثر البلدان الاوربيَّة ولا بدَّ من تغلب التقوى والفضيلة مع الزمان وهذا مستقبل العمران ومصير الانسان

البلون المقيَّد

لم يُستنبَط استنباط حامت حولهُ الافكار وبسطت بهِ الآمال اكثر من البلون ولكنهُ لم يفِ حتَّى الآن الاَّ باليسير مما يُنتظر منهُ . وآخر فائدة لهُ وهي حقيقيَّة لا وهميَّة ان يطلق من السفن مربوطًا اليها بحبل دقيق من الحرير فيعلو فوقها اربع مئة او خمس مئة متر ويصعد رجل في مركبتهِ فيستشرف البلدان التي حولهُ الى مسافة عشرين او ثلاثين ميلاً من كل جهة . ولا يخفى ان السفن الحربيَّة ولاسيما المدرَّعة منها تخشى غوائل قوارب التربيد الصغيرة وهي اذا رأت هذه القوارب عن بعد اغرقتها بقنبلة واحدة واذا لم ترَها بل دنت منها وهي لا تدري امست السفن نفسها في خطر الغرق هذا فضلاً عمَّا تستفيدهُ السفن كلها برؤية السواحل البعيدة عنها قبل ان تصل اليها . والبلون المقيد يفي بكل ذلك وقد امتحنهُ الاسطول الفرنسوي الذي في البحر المتوسط فاطار بلونًا من الدارعة المسماة باسم فوروميدابل فارتفع اربع مئة متر ورأى الذين صعدوا فيهِ كل البلدان التي حولهم الى مسافة ثلاثين او اربعين كيلو مترًا . وقد اهتمَّت نظارة الحربيَّة في جرمانيا وانكلترا باستخدام البلون المقيَّد في السفن الحربيَّة فعسى ان يكون مقلِّلاً لويلات الحرب لا مكثرًا لها